

الفصل الرابع

سنة يونس عليه السلام في التوبة

نظرة على قصة يونس عليه السلام

من أراد أن يدخل هذه المدرسة ، ويتعلم منها دروساً في التوبة من سيرة نبي من أنبياء الله ، عليه أن يعرف شيئاً عن صاحبها ؛ ليزداد تقديره لها ، ويتسع صدره لقبول ، وتفهم المنهج والصبر عليه .

فهذا يونس بن متى ، الذي قال عنه سيدنا محمد ﷺ : « لا ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى » رواه مسلم (١).

بعث الله تعالى نبيه يونس عليه السلام إلى أهل (نينوى) من أرض الموصل بالعراق ، فدعاهم إلى الله - عز وجل - فكذبوه وتمردوا عليه ، فلما طال ذلك عليه من أمرهم خرج من بين أظهرهم ، ولما تحققوا نزول العذاب بهم قذف الله في قلوبهم التوبة والإنابة ، وندموا على ما كان منهم مع نبيهم . وكشف الله العظيم بحوله وقوته ورأفته ورحمته عنهم العذاب .

قال تعالى في سورة يونس : ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ (٩٨) [يونس] .

وفي هذه الأوقات كان لسيدنا يونس عليه السلام قصة وعبرة للمؤمنين ، يقصها علينا القرآن الكريم في سورة الأنبياء : ﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذُهِبَ مُغَاصِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٨٨) [الأنبياء] .

فالآيتان فيهما انفعال صاحب الحوت وهو سيدنا يونس الذي ترك قومه غضبان ، وظن أن الله لن يضيق عليه ، ولكنه عندما وقع في الغم ، أدرك أنه كان من الظالمين ، فدعا الله بدعاء لم يدع به قبله إنس ولا جان : « فأقبلت هذه الدعوات تحت العرش ، فقالت الملائكة يارب : صوت ضعيف معروف من بلاد غريبة . فقال : أما تعرفون ذاك ؟

(١) مسلم في الفضائل (٢٣٧٧/١٦٧) .

قالوا : لا يارب، ومن هو ؟ قال : عبدى يونس . قالوا : عبدك يونس الذى لم يزل يرفع له عمل متقبل ودعوة مجابة ؟ قالوا : يا ربنا أولا ترحم ما كان يصنعه فى الرخاء فتنجيه من البلاء ؟ قال : بلى . فأمر الحوت فطرحة فى العراء . عن أنس بن مالك ورواه ابن جرير .

يقول الله تعالى فى سورة الصافات : ﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُعْثُونَ (١٤٤) ﴾ [الصافات] .

ويقص علينا القرآن الكريم كيف التقمه الحوت ، وظروف ذلك ، وكيف أنقذه الله تعالى فى سورة الصافات : ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١) فَالتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢) فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُعْثُونَ (١٤٤) فَبَدَّلْنَاهُ بِالْعُرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (١٤٥) وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ (١٤٦) وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) فَأَمَّا فِتْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ (١٤٨) ﴾ [الصافات] .

فقد ذهب يونس غضبان أسفاً وركب فى السفينة ، ووقع على يونس القرعة فألقى فى البحر ؛ وذلك تخفيفاً لحمل السفينة ، ولضمان نجاتها بعد أن تكررت القرعة ، وبدلاً من أن تحمله السفينة حملة بطن الحوت ، فألهمه الله التسبيح والدعاء فى موضع لم يعبد أحد فى مثله ، فاستغل الكرب الذى وقع فيه ، والظلمات والألم والخوف فى التوجه إلى الله بالدعاء ، بعدما أدرك أن ذلك كان ظلماً من نفسه وقع عليه ، واستغل غربة المكان ، وعدم إدراكه للزمان فهو فى ظلام - ليلاً ونهاراً - فأنعم الله عليه بأن أمر الحوت فقذفه فى الساحل وهو سقيم - مريض - وأنعم عليه بالدواء والغذاء إلى أن شفى وأذهب عنه كربه العظيم .

الآيات التى سننطلق منها لاتباع سنة يونس عليه السلام فى التوبة :

- قال تعالى فى سورة الأنبياء : ﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذُهِبَ مُغَاصِباً فَظَنَّ أَن لَّنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ [الأنبياء : ٨٦] لمعرفة أن الغضب من أسباب الوقوع فى الذنب .

- قال تعالى فى سورة القلم : ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ ﴾ [القلم : ٤٨] لمعرفة أن عدم الصبر من أسباب الوقوع فى الذنب .

- قال تعالى فى سورة الأنبياء : ﴿ فَتَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) ﴾ [الأنبياء] لمعرفة فائدة الدعاء لله - عز وجل - فى أوقات الأزمات فى تقبل التوبة .

منهج التوبة

الغضب كسبب من أسباب الوقوع فى الذنب :

يقول الله تعالى فى سورة الأنبياء : ﴿ فَنادى فى الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٨٨) ﴿ [الأنبياء] .

غضب سيدنا يونس من قومه بعدما كفروا برسالته جميعهم ، فتركهم لقوم آخرين عسى أن يؤمنوا به ، بدون إذن من ربه ، فكانت له قصة وقوعه فى البحر ، والتقام الحوت له ، فعاش فى ثلاث ظلمات : ظلمة الليل ، وظلمة البحر ، وظلمة بطن الحوت ، - وحينئذ - أدرك أنه كان من الظالمين ، فتذكر ربه ودعاه فى الظلمات ؛ فاستجاب له الله ونجاه من الغم .

أين نحن من هذه الذنوب وهذا الغضب ! هل أحست الأخت التى تركت أخوات لها ، وتوقفت عن مواصلة العمل معهن ، وطلبت غيرهن - غضبا منها - لعدم طاعتهن لها بأنها قد كانت من الظالمين ؟ هل أحست الأم التى غضبت من أولادها لعصيانهم لها ، فتركتهم مع أبيهم لتبحث عن مكان آخر وأناس آخرين أنها قد كانت من الظالمين ؟ هل أحست المدرسة فى الفصل أنها كانت من الظالمين عندما تركت الفصل لعدم هدوئه ، أو التزامه دون أداء واجبها واستكمالها ؟ هل أحست الأخت الكبيرة ، أو المسؤولة فى المنزل بأنها قد ظلمت نفسها عندما تركت أخواتها يفعلن ما يشاؤون ، ولم تقم على رعايتهم كما كان موكولا لها ؟ . عندما تجد الإجابة لها ، لم يحس أحد منهم بالظلم ، سنؤكد أنهم جميعا لم يدخلوا مدرسة يونس عليه السلام فى التوبة ، وسندرك مدى أهمية هذا المنهج النبوى فى إصلاح أحوالنا ، ووصولنا إلى بر التوبة فاترين ناجين .

وربما تقولين : كيف لا أغضب ، أليس الغضب فينا ومن صفاتنا؟! وإلا لما ما غضب الأنبياء ومنهم محمد صلى الله عليه وسلم ، فعن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللهم أنا بشر أغضب كما يغضب البشر ، فأيا مسلم سببته ، أو لعنته ، أو ضربته فاجعلها منى صلاة عليه ، وزكاة وقرية تقربه بها إليك يوم القيامة » أخرجه مسلم (١) .

هكذا كان اعتراف الأنبياء بصفاتهم البشرية التى لم يفكوا عنها ، ولم يتجردوا منها ،

(١) مسلم فى البر والصلة والآداب (١ / ٢٦٠ / ٩١) .

وإنما جعلوها لله شكرا له وقربة إليه .

وإذا كان انفعال الغضب طبعياً في النفس البشرية، فكيف تستطيعين كأخت مسلمة، أن تستغلي هذا الانفعال في صالحك، وألا يكون عاقبته الإثم، أو البغى على النفس، أو الناس؟

إذا حاولت الأخت المسلمة أن تجعل غضبها هذا لله - سبحانه وتعالى - فتغضب لغضب الله، وتغضب لانتهاك حرمت الله، والتقصير في أداء فروضه وواجباته، سواء كان ذلك من نفسها أو من الآخرين، وبهذا يكون هذا الانفعال ضرورياً لكل مسلم ومسلمة؛ لكي يصحح عبادته وإسلامه وتستقيم أموره .

وهذه أمثلة يمكن أن تقرب إليك هذا المفهوم :

- أن تغضبي لعدم أداء فريضة صلاة الفجر من جانب أفراد أسرتك، وأن تحسّي بالألم النفسي لذلك؛ مما يدفعك إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

- أن تغضبي لعدم التزام أختك بالحجاب الذي أمرها الله به .

- أن تغضبي للتقصير في بر الوالدين .

- أن تغضبي لعدم أداء فريضة الصلاة في أماكن العمل، أو الدراسة وتأخيرها، وربما نسيانها .

- أن تغضبي لعدم طاعة الزوجة لزوجها، وعدم حفظها لماله ولنفسها في غيابه .

وهذه الأمثلة ربما تفتح أمامك أبواباً أخرى للغضب المشروع والمحمود، ولكن يجب أن تختاري طريقك في الغضب أو في التعبير عنه، فهل سيكون بالحكمة والموعظة الحسنة، أم سيأتي الغضب بما لا تحمد عقباه؟

لقد أدى انفعال الغضب الذي كانت نيته لله إلى إحجام العديد من الناس عن الالتزام بالدين أو اختياره كأساس للحياة؛ ولذلك جاء كظم الغيظ من الفضائل التي ينحلي بها المسلم، إلى أن تستطيعي إحسان التفكير والتعقل، واختيار أفضل السبل للعلاج ولالإصلاح بعد الوصول إلى حالة الهدوء النفسي بعد الثورة النفسية والعقلية التي يحدثها الغضب في صاحبه .

وتذكرى أن غضب سيدنا يونس كان غضباً لله، ولكنه اختار طريقاً لم يأمره الله به، فترك قومه باحثاً عن أناس آخرين من الممكن أن يقبلوا دعوته، ويؤمنوا بالله الواحد القهار . فمدرسة يونس عليه السلام في التوبة تعلمنا من غضب، وكيف نستغل هذا الانفعال

ونحسن الوقت فى الاستجابة له ، ونحسن كيفية الاستجابة ، وهى أمور تحتاج إلى تدريب ورياضة للنفس ومحاسبة دائمة لها ، لكى نقوم انفعالاتها فيما يحب الله ويرضى ، فنسأل لماذا غضبت؟ لنفسى أم لله ؟ وإذا كان لله هل تم كيفما يرضاه ؟

ولكن ماذا تفعلين عندما تجدين نفسك وقعت فى انفعال الغضب ، ووجدتى آثاره على قلبك فى شكل حقد أو حسد أو حزن لسرور الغير أو فرح لحزنهم ، أو وجدت آثاره على لسانك بالشتم أو التلفظ بالفحش من القول ، أو إذا وجدت آثار الغضب على جوارحك فأخذتى بالضرب أو الاعتداء على الغير بقسوة و دون رحمة ؟

- فلتفكرى فى فضل كظم الغيظ الذى فاتك ، وفوت عليك حب الله والوصول إلى درجة الإحسان التى لا ينالها إلا من كظم غيظه وعفا عن الناس : ﴿ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران] وتفكرى أن الشديد هو الذى يملك نفسه عند الغضب وخاصة على من قدر عليهم .

- أن تتذكرى قدرة الله عليك ، وأنه لا يحب الظالمين .

- أن تحذرى نفسك من عاقبة العداوة ، والانتقام ، والخصومة ، والكراهية ، وقطع الرحم والخسارة فى النفس والمال .

- أن تتفكرى فى قبح صورتك عند الغضب ، كيف تتقلص عضلات الوجه ويحمر لونه ، ويرتفع الصوت ويغلظ ، وتحفظ العينان ، ويكون شكل الإنسان لا تقبله نفسه قبل الآخرين .

- أن تعلمى أن غضبك كان سببه هو تعجبك من قدر الله . وكيف يسير الشئ أو الناس على غير ما تريدين ، فالفتاة التى ترغب فى الخروج يومياً من البيت ؛ للنزهة وضياح الوقت وتقصر فى واجباتها ، فتغضب عندما يمنعها والدها من الخروج أو الإسراف فيه ، أو الخروج فى أوقات معينة لا يأمن فيها عليها ، فهى تسأل نفسها لماذا جعل الله طاعة الوالدين ، وتنظر إليها كأنها من معوقات حرية الفرد التى تتمنى أن تحصل عليها دون قوانين أو رقابة أو التزامات .

فهذا عن التفكير والعلم ، ولكن ماذا عن القول والعمل ؟

- أن تقولى عند الغضب : « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » .

- أن تتوجهى إلى الله بالدعاء أن يذهب غيظ قلبك ويبعد عنك الفتن ، فهذا دعاء

علمه الرسول ﷺ لعائشة - زوجته - ﷺ « اللهم رب النبي محمد اغفر لي ذنبي وأذهب غيظ قلبي ، وأجرني من مضلات الفتن » (١) .

- أن تذهبي وتوضئي وضوءك للصلاة فقد قال ﷺ : « إن الغضب من الشيطان ، وإن الشيطان خلق من النار ، وإنما تطفأ النار بالماء ، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ بالماء » (٢) .

- أن تمتنعى عن الكلام نهائياً بالسكوت ، وعدم النظر إلى ما يغضبك ، فقد قال الرسول محمد ﷺ : « إذا غضبت فاسكت » أخرجه أحمد والطبراني (٣) .

- تغيير الوضع بتغيير حركة الجسم من الحركة للسكون ، أو من السكون للحركة ، وقد قال رسول الله محمد ﷺ : « إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس ، فإن ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع » (٤) .

- وضع الخد على الأرض ، وهو أمر عن الرسول محمد ﷺ لنا . قال الرسول محمد ﷺ : « ألا إن الغضب جمرة في قلب ابن آدم ، ألا ترون إلى حمرة في عينيه ، وانتفاخ أوداجه ، فمن وجد من ذلك شيئاً فليلصق خده بالأرض » حديث أبي سعيد أخرجه الترمذى (٥) .

ومن هذه النقاط يكون علينا العمل في ثلاثة اتجاهات: الاتجاه الأول : هو النفس بسرعة إدراك حالتها وتذكر الله ، والاتجاه الثاني : هو التوجه إلى الله بالدعاء والاستعاذة به من الشيطان الرجيم ، والاتجاه الثالث : هو الشيء أو الشخص الذى غضبت بسببه بالابتعاد عنه وعدم النظر إليه ، أو مخاطبته فلا يصبر على الاستمرار في حالة الغضب التى وقع فيها يقول الله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٣٥)﴾ [آل عمران] .

عدم الصبر كسبب من أسباب الوقوع فى الذنب :

قال تعالى فى سورة القلم : ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ (٤٨)﴾ [القلم] . الأمر لسيدنا محمد ﷺ متمم الأخلاق للإنسانية جميعاً ، والنهى

(١) أحمد (٣٠٢/٦) .

(٢) أبو داود فى الأدب (٤٧٨٤) .

(٣) أحمد (٢٣٩/١) ، وقال الشيخ أحمد شاكر (٢١٣٦) : « إسناده صحيح » ، والطبراني فى الكبير (٣٣/١١) .

(١٠٩٥١) ، وقال الهيثمى فى المجمع (٧٢/٨) : « رجال أحمد ثقات » .

(٤) أبو داود فى الأدب (٤٧٨٢) .

(٥) الترمذى فى الفتن (٢١٩١) ، وقال : « حسن صحيح » .

له فى عدم اتباعه طريق يونس عليه السلام فى عدم الصبر على قومه ، ليكون خلقه القرآن ويكون قرآنا يمشى على الأرض. فقد أنزل الله تعالى الآيات على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم تخبره بقصص الأنبياء؛ ليكون له ولمن تبعه عبرة وموعظة ينتفع بها المؤمنون . فقد استبطأ سيدنا يونس إيمان قومه، وظن أن الله لن يضيق عليه بالبقاء بين هؤلاء القوم المعاندين، وقد كتب الله لهم جميعاً الإيمان بعد أن تركهم؛ ليكونوا آية للمسلمين جميعاً وهداية للمؤمنين .

فمن منا لا يحتاج إلى الصبر فى حياته؟! وقد خلق الإنسان هلوفاً إذا مسه الشر جزوعاً ، يقول الله تعالى فى سورة آل عمران : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٢٠٠) .

فهو أمر للمؤمنين جميعاً بالصبر واحتماله، فهو فضيلة تسبق فضائل أخرى كالشجاعة والرباط والقتال والثبات ، ويصف الله تعالى الصابرين بالصدق والتقوى فى سورة البقرة : ﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ (١٧٧) والصدق هنا هو الصدق مع الله - سبحانه وتعالى - ومع النفس ، فلا يعنى الصدق سرعة التعبير عما يدور فى ذهن أحدنا، أو فى نفسه وقلبه فتقول: إننى صادقة ؛ فهنا تقع كثير من الأخوات فى الذنب بسبب هذا الصدق غير المطلوب ، وقد كانت بحاجة إلى كظم الغيظ ، أو الصبر والصدق مع الله تعالى؛ لإصلاح النفس وإصلاح الغير . وقد قرن الله تعالى الصلاة والصبر - كوسيلتين - يستعين بهما المؤمن فى طاعة الله وعلى ما يصيب المؤمن من المصائب يقول الله تعالى فى سورة البقرة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (١٥٣) ، وقد كان لنا فى رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة، فقد صبر صلى الله عليه وسلم على أذى الكفار وإهانتهم إلى أن أتم الله الدين عليه وعلى المسلمين .

وعلينا أن ندرك أن الصبر ليس سلبياً ، فكل بلاء تستطيع أن تدفعه عنك لا تؤمر بالصبر عليه إنما عليك ، أن تقومى بدفعه بما أعطاك الله من قوة وعلم ودين ، وكذلك الصبر ليس عملاً سلبياً يتطلب من الأخت السكون ، أو أن تتحمل آلاماً ومشاق على الدوام ولكنه فترة وفضيلة يستخدمها المسلم لتقوية نفسه ، ونيل حب الله له ، وهو اختيار لمدى قدرة الأخت على تحمل الصعاب ، أو المشكلات فهو قدرة فى النفس تمكنها من الاحتمال بغير تبرم يؤدى إلى ضياع الحقوق أو ظلم النفس أو الغير .

وعندما ننظر إلى أعمالنا وما أصابنا من ذنوب أثناء اليوم سندرك أن كثيراً منها كان يمكن ألا يتم إذا استعنا بالصبر والصلاة .

وإليك هذه الأمثلة لتقريب الفكرة إلى الذهن :

- إذا صبرنا على إتمام العمل كما يحب الله ويرضى ، وراجعناه وقيمناه وحاسبنا أنفسنا ، هل ستكون النتيجة خطأ أو النقصان ؟ ثم الشعور بالذنب تجاه النفس المقصرة .

- إذا صبرنا على أداء الصلاة والمحافظة عليها وإتمامها كما أمرنا الله تعالى وصبرنا على أهلنا في الأمر بها : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ [طه : ١٣٢] ، هل سيكون أحد في المنزل لا يؤديها ثم نقع في الذنب إذا أهملنا ؛ لأن « كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته » (١) . حتى الخادم فقد جعله الإسلام مسؤولاً في عمله .

- إذا صبرت الأخوات الصغيرات على النظام والنظافة في المكان اللاتي يجلسن فيه كما تصبر على مظهرها وجمالها ، هل سيحسن من حولها بأى تقصير في أداء واجباتهن ؟

- إذا صبرت الأخوات على العلم هل ينتظرن إلا التفوق بإذن الله ؟

- إذا صبرت الزوجة على زوجها هل تنتظر غير الحب والتقدير والعرفان بالجميل من جانب زوجها ، وإذا لم تل ذلك هل تنتظر غير توبة الله عليها ودخول الجنة ؟

- إذا صبرت الأخت على دعوة أخواتها إلى الله وطاعته فيما يأمرنا به ، والابتعاد عما نهانا عنه ، هل ننتظر إحكاماً منهن أو نفورا ؟ فلتتذكر بأن الله مع الصابرين ، وأن الله يحب الصابرين .

لذلك نجد أن الأمثلة كثيرة في مجال الصبر ، وهو ما يعنى أننا نحتاجه في كل لحظة وفي كل حال ، ونتيجته لا تقع فقط على من يقوم به، وإنما على كل من حوله من إنسان وحيوان وجماد ونبات ، فالخير في الصبر للجميع ، كما أن نتيجته تأثيرها طويل من حيث الزمن وقوية من حيث التأثير ، فربما تذكر إحدانا في نفسها أنها لو لم تصبر في الماضي على فلان لكان الحال غير الحال ، ولو لم تصبر على الدراسة لما كانت الآن في هذا المكان ، ولو لم تصبر على بر الوالدين في حياتهما فقد خسرت بعد موتهما الكثير ، ولو لم تصبر على زميلاتها وأخواتها في الله لوقعت في الإثم والمعصية ، ولكان حالها غير الحال ، ولو لم تصبر على الألم والمرض لكان إحساسها به أعظم وأكبر .

(١) البخارى فى العتق (٢٥٥٨) .

الدعاء لله وتقبل التوبة :

الدعاء فى أماكن لا يذكر فيها الله كثيرا . وفى أوقات الأزمات وبأفضل الدعاء . قال تعالى : ﴿ فَنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾ (٨٧) فاستجبت له ونجّاه من الغم وكذلك تنجي المؤمنين ﴿ (٨٨) ﴾ [الأنبياء] .

لقد ألهم الله تعالى سيدنا يونس عليه السلام الدعاء فى مكان لم يذكر فيها الله وهو بطن الحوت ؛ وألهمه الله دعاء لو دعا به المؤمنون فى أوقات كربهم لاستجاب الله لهم ، ودعا الله تعالى فى وقت الشدة والضيق فلم يكن فى ظلمة واحدة وإنما كان النبى فى ظلمات ثلاث ؛ ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة بطن الحوت . فما أصعب الوقت وما أصعب الظروف ، وما أصعب المكان، ولكن كل هذه الصعوبات والظلمات تحولت بفضل قوة اليقين والإيمان إلى مرحلة سيأتى بعدها الفرج : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ [الشرح] .

فهذه مدرسة يونس عليه السلام تعلمنا أن ندعو الله ونتقرب إليه فى أماكن لا يذكر فيها الله كثيرا ، وما أكثرها فى هذا الزمان ، فربما تكون وسيلة من وسائل المواصلات وربما تكون مكانًا من أماكن اللهو والترفيه ، وربما تكون فى الأسواق والمحلات التجارية ، وربما تكون فى أماكن الدراسة التى لا يذكر فيها الله كثيرا .

فعلى الأخت المسلمة المؤمنة أن تكثر الدعاء والاستغفار فى وقت غفلة الناس عن الذكر ، فربما تذكر نفسها وتذكر غيرها فتفوز بالاستجابة للدعاء وتسعد فى دينها ودنياها .

ولنا فى الأنبياء أسوة حسنة وعلاج للكرب فى الوقت العصيب ، ولنتذكر حديث الرسول ﷺ الذى يحكى لنا فيه قصة لثلاثة رجال وقعوا فى أزمة ، ولم يخرجهم منها إلا الدعاء والتضرع لله والتقرب إليه بالعمل الصالح .

فعن أبى عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى آواهم المبيت إلى غار ، فدخلوه فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار . فقالوا إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله تعالى بصالح أعمالكم . قال رجل منهم : اللهم كان لى أبوان شيخان كبيران ، وكنت لا أعقب (لا أقدم فى الشرب قبلهما) قبلهما أهلا ولا مالا ، فنأى بى طلب الشجر يوما فلم أرح (أرجع) عليهما حتى ناما فحلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين ، فكرهت أن أوقظهما وأن أعقب قبلهما أهلا أو مالا فلبت . والقدر على يدي - أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر (ظهر ضوءه) والصبية يتضاعون عند قدمي (يصيحون

من الجوع) فاستيقظا فشربا غبوقَهُما . اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة ، فانفرجت شيئا لا يستطيعون الخروج منه قال الآخر : اللهم إنه كانت لى ابنة عم كانت أحب الناس إلى . وفى رواية: كنت أحبها كأشد ما يحب الرجال النساء ، فأردتها على نفسها (طلبت منها ما يطلب الرجل من زوجته) فامتعت منى حتى أملت بها سنة من السنين (أى نزلت بها سنة من السنين المجدة) فجاءتنى فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تخلى بينى وبين نفسها ففعلت ، حتى إذا قدرت عليها قالت : اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه (أى لا تزل عفافى إلا بالزواج) ، فانصرفت عنها وهى أحب الناس إلى ، وتركت الذهب الذى أعطيتها . اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه ، فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها . وقال الثالث : اللهم إنى استأجرت أجراً وأعطيتهم أجرهم غير رجل واحد ترك الذى له وذهب ، فثمرت أجره حتى كثرت منه الأموال فجاءتنى بعد حين فقال: يا عبد الله ، أد إلى أجرى فقلت : كل ما ترى من أجرك : من الإبل والبقر والغنم والرقيق . فقال : يا عبد الله ، لا تستهزئ بى ! فقلت : لا أستهزئ بك ، فأخذه كله فاستاقه فلم يترك منه شيئا : اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه فانفرجت الصخرة ، فخرجوا يمشون « متفق عليه (١) .

وفى هذا الحديث دروس وعبر للمؤمنين ، فالدعاء عند الكرب يفرجه ، والتوسل بالعمل الصالح يخفف الهم ، وكذلك فضل بر الوالدين وخدمتهما، وفضل العفاف وأداء الأمانة والمحافظة على العهد والصدق، أما إخلاص العمل لله وحده فهو أساس تقبل الله للعمل ، فما كان لله بقى ودام وما كان لغيره فهو أتر .

(١) البخارى فى الإجارة (٢٢٧٢) ، ومسلم فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار (٢٧٤٣/ ١٠٠) .